أين مقام المصطلح من الأولويات؟

الدكتور عادل أحمد جرّار

الجامعة الأردنية

منذ أن خطوت والكثيرين من أقراني في العمر خطوات التعليم الجامعي ونحن نشهد عملية التعريب بين الإقدام والإحجام والتجارب المتسرعة والمحاولات المبتورة إلى أن ظهرت مجامع اللغة العربية والمجامع العلمية والمؤسسات العربية في دور الموجّه والمنظم لهذه العملية. وصار الحال إلى اختيار بين وجهين:

1-الاندفاع في عملية التعليم باللغة العربية وابتداع المصطلحات أثناء الممارسة.وأنصار هذا الاتجاه يستندون إلى أن في مستودع المصطلحات عدداً غير قليل تكوّن نتيجة لتلك التجارب والمحاولات القليلة التي ظهرت في أرجاء العالم العربي. ويضيفون إلى ذلك أن مسألة المصطلح ليست بالتعقيد الذي يصور لنا،وأن هناك ما هو أكثر تعقيدا منها وهي مسألة الأسماء وخاصة الأسماء المشتقة بطريقة البوادئ واللواحق المألوفة في اللغات الأجنبية كالإنجليزية مثلا.

ولا أكتمكم أنني من أنصار هذه الطريقة ولي فيها تجارب تتمثل في عدد من كتب الكيمياء شاركني في قسم منها بعض الزملاء الكيميائيين،ولم يكن في وضعها ما يعيق من ناحية المصطلح،ولم نتلق أي اعتراض يؤبه به على ما أورد فيها من مصطلحات مع أنها تستخدم في عدد كبير من البلاد العربية.

2 -إرجاء عملية التعريب في الجامعات إلى أن تقوم الهيئات المعنية بوضع المصطلحات الموحدة التي يستند إليها كل من يكتب في العلوم في العالم العربي.وأنصار هذا الاتجاه ينطلقون من الخشية في أن تنتشر الفوضى بسبب الاختلافات في المصطلحات الإقليمية فلا يفهم مواطن بلد عربي ما يرد في كتاب وضع في بلد عربي آخر.

ويفترض في هذا الأسلوب أن يفرز عدداً من المعاجم في فروع العلم المختلفة يستقي منها المؤلفون والمدرسون.

لكن النظر في عواقب هذا الاتجاه الذي يبدو أنه الغالب الآن،والدليل على ذلك هذه الندوة التي تعالج وجهاً من وجوه هذه القضيّة،هذا النظر يبين ما يلي:

1-رغم مرور بضعة عقود على هذه الممارسة لم نصل إلى ما يمكن أن يوصف بقاعدة متواضعة من المصطلحات المتفق عليها،فالجهود في معظمها لا تزيد عن تجميع المصطلحات المتداولة في المناطق المختلفة دون تفضيل لأحدهما على الآخر.ولأضرب لذلك مثلين:

أ- معجم الكيمياء.

ب-معجم مصطلحات البترول.

لقد أوكلت إلي في الفترة الأخيرة مراجعة نشرة لمجلة مجمع اللغة العربية تنتقد معجم الكيمياء.وفي الحقيقة وجدت أن معظم الانتقادات محقة،وكأنها حركت في

نفسي جوانب عدم الرضا عن المعجم الذي لم أستخدمه في أي من مؤلفاتي لأنني كنت أنظر إليه فأنفر مما فيه.

أما معجم مصطلحات البترول فقد أوكلت إلي مراجعته في إحدى المراحل،فوجدت فيه أكثر من عشرة آلاف بند إذا غُربلت وصُفيت لسقط أكثرها لأنه لا علاقة له بالمصطلح أو لأنه تكرار وإعادة في صورة أو أخرى.وقد تصوّرت حال مؤلف يود الرجوع إلى هذا الحشد الهائل مما دُعي بالمصطلحات وأن مجرد معاينته ستنفّره من التأليف والكتابة.

2- لم يظهر لهذا الأسلوب أي أثر يذكر في توحيد اللغة العلمية في الجامعات العربية التي تدرس باللغة العربية.فما زالت الإقليمية هي المسيطرة وما زال واضعو الكتب يضعونها في استقلال تام عن المعاجم التي ما زال معظمها في مرحلة المخطوطة.وحتى هذه الكتب المنتشرة في بعض الجامعات ما زالت إقليمية إلى حد كبير فنادراً ما يغادر الكتاب حدود البلد الواحد أو ينقل تجربة بلد إلى بلد آخر إلاّ إذا كان متميزاً،وهذه الكتب قليلة،أو كان صاحبه في وضع يمكنه من ترويجه في الجامعة التي انتقل إليها من بلد آخر.

خلاصة رأيي في هذا الموضوع أنني أحبذ الأسلوب الأول ولا أُعارض الأسلوب الثاني إلاّ في مسألة التوقيت،وأرى أن الأسلوبين متكاملان، فالأسلوب الأول سيستقي مادته من المؤلفات التي تعززها الممارسة،ويهذبها بمثل الجهود التي تنطوي عليها ندوتكم،والأسلوب الأول سيغني بما يستقيه من الأسلوب الثاني،دون أن يفرض عليه أن يكون لاحقاً له لا يُسمح ببدئه قبل اكتمال وضع المعاجم،وهو ما لن نصل إليه أبدا.

إن جهود هذه الندوة مشكورة قيمة وهي حصيلة خبرات يُعتدّ بها،لكنها جهود تصب في بحر الضياع لأننا نصنع بضاعة ليس لها مستخدمون،وها هي الجامعات إلى جواركم وفي القريب منكم لا تؤمن بجدوى جهودكم فكلها أقصت اللغة العربية عن ميدان تعليم العلوم،وليس في ما يصدر عنها من قول أي التزام بإقرار التعريب حتى تأخذ هذه الجهود حظها من الاستخدام والاختيار.

حين رشحتني الجامعة الأردنية لتمثيلها في هذه الندوة طلبت أن تزودني الجامعة بتصورها لما سأقوم به هنا لأنني لا أنظر إلى مشاركتي هنا على أنها مشاركة شخصية،فإذا كنت سأمثل الجامعة فإنني أريد أن أنطق برأيها.لكنني، كما توقعت، لم أتلق شيئا من ذلك،لذلك لا تأخذوا حماسي للتعريب أو رأيي في وسيلة تطبيقه على أنهما حماس الجامعة الأردنية ورأيها، فما أقول لا يخرج عن كونه رأياً شخصياً بحتاً.وهنا أود أن ألتمس جانباً بسيطاً من جوانب المصطلح العربي،وهي مسألة نطقه وكتابته. ولأضرب مثلاً بحرف g الإنجليزي في كلمات sigma,glucose,gasoline,gas. إذا نظرت في المؤلفات العربية وفي المعاجم تجد غاز وما اشتق منها،وتجد جازولين وجلوكوز وسيجما.لا توجد في العربية هذه الجيم المخففة،حتى لو وجدت أو فرضت لماذا لا تكون موحدة؟ ولماذا يبقى الاختلاف ولا يجري التغيير مع أن إحدى الهيئات العلمية العربية وهي اتحاد الكيميائيين العرب أوصت بتوحيدها كلها بالغيْن لتمييزها عن الكلمات التي يلفظ فيها g بلفظ الجيم العربية مثل Geologyوما اشتق منها؟ فتصبح غاز، غازولين، غلوكوز،وسيغما.

ثم هناك الكلمات التي فيها حرف V الإنجليزي أو W الألماني التي درجنا على وضع مقابلها حرف ف، أليس من الأفضل أن نضع ثلاث نقط ونلفظها كما هي في الأصل،أمثلة: ڤوهلر Wohler، ڤلكنة Vulcanization، ڤاينيل Vinyl ، ڤانت هوف Van't Hoff، ڤيتامين Vitamin ، ڤالين Valine ، ڤيسكوز Viscose .إن الحالة في هذه الأمثلة توضح مدى التباين بين الآمال والواقع، فما توصي به ندوة أو هيئة مبعثه الأمل في التحسين والتطوير،لكن لا توجد هناك سلطة تصدر تعليمات يجري تنفيذها فورا،لذلك يبقى الواقع على ما هو عليه.ومع بساطة هذه الأمثلة وعدم ارتقائها إلى مستوى المنهجية المتكاملة التي ترد في التصورات العديدة في هذه الندوة إلاّ أنها مثال لما يمكن أن يجري من التهذيب والتشذيب في المصطلحات أثناء الاستعمال في الميدان حين تنتصر فكرة لاقتناع الكثيرين الذين استخدموها أو رأوها في الكتب سنة بعد أخرى.فلا ضير مثلا في استخدام جزيء وجزيئي لتقابل كلمة molecule والزمن كفيل بترسيخ إحداهما وتلاشي الثانية. لذلك فإن شعاري في التعريب هو أن تدعو إلى أن تُتاح لك الفرصة لتدرّس بالعربية ولتضع كتاباً بالعربية، وأن تحل مسألة المصطلح دون تشنج وبعمل مرحلي أثناء الاستخدام.فما مسألة المصطلح إلاّ قشرة بسيطة إذا ما قورنت بمسألة الأسماء التي أرى أن تبقى على حالها مثلها مثل الرموز فهي عالمية الهوية،فلا أريد أن يقترح علي أحد أن أُسمي المركب Adamantane بصخران بدلا من أدامنتان، فاليباني والصيني والهندي يستخدمون اللفظ كما هو مكتوبا بحروفهم ويستخدمون الرمز Na للصوديوم دون أي اعتراض.هناك أكثر من ثلاثة ملايين مركب في جعبة الكيمياء العضوية،فإذا شغلنا أنفسنا بتحوير الأسماء وتغييرها لنُلبسها حلة عربية سنضيع ونفصل أنفسنا عن التيار الكيميائي.وهذه الأسماء موضوعة أصلا على أساس ارتباط ضعيف مع كوكب أو نجم أو شخص أسطوري،وبعضها ذو أساس عاطفي كاسم Barbiturates باربيتورات الذي وضعه كيميائي كان يحب فتاة اسمها Barbara وبعضها أسماء جمعت من الحروف الأولى لتعبيرطويل مثل: Nylon, Aids, Laser, Unesco.فالاسم الأخير مثلا هو الحروف الأولى من كلمات نطق بها قائلها حين صنعت شركته خيوطا تنافس بها الحرير الذي كانت تحتكره اليابان فقال : Now Ye Lousy Old Nippon.